الحج في السياسة الإسلامية الفرانكوية في المغرب (1939-1936)

الحج في السياسة الإسلامية الفرانكوية في المغرب (1936-1939)

نور الدين أحميان

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

أحميان، نور الدين

الحج في السياسة الإسلامية الفرانكوية في المغرب (1936-1939)/ نور الدين أحميان.

528 صفحة: ايضاحيات، خرائط؛ 24 سم

يشتمل على ببليوغرافية (صفحات 499-518) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-753-5

1. الحج - الجوانب السياسية - المغرب. 2. الدين والسياسة - المغرب - القرن 20. 3. الحركة الفرانكوية - المغرب - القرن 20. 4. المغرب - تاريخ - الاحتلال الإسباني، 1912-1956. 5. إسبانيا - تاريخ - الحرب الأهلية، 1936-1939. 6. إسبانيا - السياسة والحكومة - 1931-1939. أ. العنوان.

964.04

العنوان بالإنكليزية

The Hajj in Francoist Islamic Politics in Morocco (1936-1939)

by Noureddine Ahmiane

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 40356888 00974

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، تموز/ يوليو 2026

المحتويات

قائمة الجداول والأشكال والخرائط والصور 11

ملخص تنفيذي 17

مقدمة 25

القسم الأول
الفرانكوية ودعايتها الإسلامية في المغرب
الأهداف والتداعيات

الفصل الأول: الحركة الفرانكوية ونهجها للسياسة الإسلامية في المغرب 43

أولًا: الأوضاع العامة بالمغرب وإسبانيا قبيل الانقلاب الفرانكوي 43

1 – وضعية إسبانيا قبيل الانقلاب الفرانكوي 43

2 – الوضعية العامة لمنطقة النفوذ الإسباني في المغرب 49

ثانيًا: ظهور الحركة الفرانكوية وارتباطاتها بالمؤسسة الدينية 55

1 – التعريف بفرانكو والفرانكوية 55

2 – تحالف الفرانكوية والكنيسة 60

3 – الانقلاب الفرانكوي: الأسباب، والمراحل، والتداعيات 66

ثالثًا: السياسة الدينية في المغرب قبل الحرب الأهلية الإسبانية 75
1 – السياسة الدينية في المنطقة السلطانية 75
2 – السياسة الدينية الإسبانية في المنطقة الخليفية وتجلياتها 89
خلاصة 111

الفصل الثاني: الدعاية الفرانكوية في المغرب 113
أولًا: أهمية الحج والعالم العربي في الدعاية الفرانكوية 115
1 – الحج ركن أساسي في الدعاية الفرانكوية 116
2 – الأخوة الإسبانية–المغربية والتقرب
من العالم العربي ضمن الدعاية الفرانكوية 132
ثانيًا: إدراك الفرانكوية أهمية الإعلام والتعليم في الدعاية 143
1 – الدعاية الإعلامية 144
2 – الاهتمام بالتعليم ومراكز البحث 151
ثالثًا: اهتمام الدعاية الفرانكوية
بقادة الحركة الوطنية وذوي النفوذ 163
1 – الآليات السياسية 163
2 – استقطاب ذوي النفوذ 175
خلاصة 183

الفصل الثالث: موقف الحركة الوطنية إزاء الدعاية الفرانكوية 185
أولًا: تجنيد المغاربة في الحرب الأهلية وعوامله 188
1 – عوامل إقبال المغاربة على التجنيد 189
2 – التنظيمات العسكرية المغربية المشاركة في الحرب الأهلية 206

ثانيًا: تعدد المواقف من تمرد فرانكو وتجنيد المغاربة 208
1- موقف الحركة الوطنية من تمرد فرانكو وتجنيد المغاربة 208
2- موقف الأطراف الأخرى من الانقلاب الفرانكوي
وتجنيد الأهالي 226
3- مغاربة واجهوا الفرانكوية وانخرطوا
في صفوف الجمهوريين 239
خلاصة 244

القسم الثاني
الحج الفرانكوي والقضايا التي أثارها
(1939-1936)

الفصل الرابع: رحلات الحج الفرانكوية وظروفها 249
أولًا: رحلة الرهوني لسنة 1937 وظروفها 249
1- الرهوني ورئاسة وفد الرحلة 250
2- تدبير وسائل نقل الحجاج 259
3- ظروف رحلة الحج لموسم 1937 267
4- مسار الرحلة ومحطاتها 277
5- تكاليف رحلة حج 1937 285
ثانيًا: رحلة سنة 1938 ومميزاتها 291
1- التعريف برئيس الوفد 292
2- وسيلة نقل الحجاج 294
3- ظروف الرحلة 299
4- مسار الرحلة ومحطاتها 310

ثالثًا: رحلة 1939 وخصائصها 314
1- التعريف برئيس الوفد 314
2- وسيلة نقل الحجاج 317
3- ظروف الرحلة 318
4- مسار الرحلة ومحطاتها 320
5- تكاليف رحلة حج 1939 331
خلاصة 362

الفصل الخامس: مكونات وفد الحج وأهميته 363
أولًا: مكونات وفد الحجاج سنة 1937 363
1- الوفد الرسمي للحج 363
2- مكونات وفد حجاج موسم 1937 367
3- الطواقم المرافقة للحجاج 373
ثانيًا: مكونات وفد حج سنة 1938 377
1- الوفد الرسمي للحج 377
2- مكونات وفد الحجاج 378
3- الطواقم المرافقة للحجاج 389
ثالثًا: مكونات حج سنة 1939 392
1- الوفد الرسمي للرحلة 392
2- مكونات وفد الحجاج 395
3- أهمية الوفد 418
خلاصة 420

الفصل السادس: قضايا مرتبطة برحلات الحج الفرانكوي 421
أولًا: خصائص الحج الفرانكوي 421
1- حضور المرأة والنخب في الحج الفرانكوي 422
2- مراسيم توديع وفد الحجاج واستقباله 427
3- القضايا الصحية في رحلات الحج 443
ثانيًا: تطور أعداد الحجاج خلال سنوات
الحرب الأهلية وتوقف الحج الفرانكوي بعدها 452
1- تطور أعداد الحجاج خلال سنوات الحرب الأهلية 452
2- رحلة حج 1940 بين الإعداد والإلغاء 457
ثالثًا: الحج والدبلوماسية الفرانكوية 468
1- التمثيل القنصلي لإسبانيا في السعودية 468
2- التحالف الفرانكوي-الموسوليني من خلال الحج 473
رابعًا: نتائج رحلات الحج الفرانكوية 478
1- المواكبة الإعلامية 478
2- تلميع صورة الجنرال فرانكو 481
خلاصة 491
خاتمة 493
المراجع 499
فهرس عام 519

قائمة الجداول والأشكال والخرائط والصور

الجداول

(2-1): تطور أعداد الحجاج بأقطار المغرب الكبير خلال الثلاثينيات 126

(4-1): أسعار تذاكر السفر 271

(4-2): مداخيل بيع التذاكر والجنيه الاسترليني
للحجاج حسب الجهات سنة 1937 285

(4-3): المواد الغذائية المقتناة من قبل محمد كركيش للرحلة 286

(4-4): المواد الغذائية المقتناة من قبل فرانثيسكو ليميانا للرحلة 287

(4-5): مصاريف متعلقة بنقل الحجاج 288

(4-6): مصاريف متنوعة لرحلة حج 1937 289

(4-7): أسعار تذاكر الرحلة 303

(4-8): أسعار التذاكر على متن سفينة "بلوفَنل لايْن" 306

(4-9): أسعار تذاكر السفر لموسم حج 1939 318

(4-10): أسعار تذاكر السفر لموسم حج 1939 حسب الوثائق الفرنسية 318

(4-11): المؤن التي حدد لجهة غمارة أن توفرها لرحلة 1939 334

(4-12): مجموع مؤن جهة غمارة 334

(4-13): المؤن التي وفرتها الناحية الغربية مع تحديد أسعارها 336

(4-14): مصاريف التموين لرحلة 1939 340
(4-15): مصاريف إضافية زادتها السلطات الإيطالية لرحلة حج 1939 343
(4-16): تكاليف الرحلة في ميناءي بورسعيد والسويس 1939 345
(4-17): مشتريات العودة من الحج 346
(4-18): المصاريف المترتبة عن نقل الحجاج 349
(4-19): مصاريف نقل المؤن 350
(4-20): مصاريف الدعاية للحج سنة 1939 351
(4-21): المصاريف الصحية وطبيعتها 355
(4-22): مصاريف إصلاح السفينة وتجهيزاتها 356
(4-23): مصاريف تجهيز السفينة بالسينما 358
(4-24): مصاريف الموارد البشرية 358
(4-25): الطاقم الأمني المرافق للحجاج 360
(5-1): أعضاء الوفد الرسمي 365
(5-2): الحجاج المستفيدون من رحلة حج 1937 369
(5-3): أفراد المخازنية المرافقون للحجاج سنة 1937 374
(5-4): أفراد الطاقم الخدماتي المرافق للحجاج سنة 1937 376
(5-5): المستفيدون من التذاكر المجانية للحج
ومبلغ الجنيهات المسلمة لهم قصد أداء الحج 379
(5-6): أفراد الطواقم المرافقة للحجاج المنتمين إلى الناحية الغربية 383
(5-7): توزيع تذاكر السفر للحج موسم 1938 حسب الجهات 387
(5-8): توزّع عدد الحجاج حسب درجات السفر
وميناء انطلاقهم بالرحلة 388

(5-9): عناصر من الطواقم المرافقة للحجاج 391

(5-10): أعضاء الوفد الرسمي لحجاج موسم 1939 394

(5-11): وفد الجنوب المغربي المشارك في رحلة حج 1939 397

(5-12): رجال السلطة الذين قدمت لهم تذاكر السفر
والمبلغ المخصص لكل واحد منهم 401

(5-13): قائمة المعينين للرحلة الذين قدمت لهم تذاكر السفر المجانية
والمبلغ المخصص لكل فرد منهم 402

(5-14): لائحة الأعيان المستفيدين من تذاكر السفر المجانية 406

(5-15): المبالغ المقدمة للمستفيدين من الرحلة 409

(5-16): توزّع الحجاج حسب الجهات ودرجات السفينة 416

(6-1): حضور النساء في وفد حج سنة 1939 425

(6-2): الطاقم الصحي المرافق لحجاج سنة 1939 448

(6-3): تطور أعداد الحجاج على متن السفن الفرانكوية
خلال الحرب الأهلية 454

(6-4): تطور أعداد الحجاج التابعين للقوى الإمبريالية
خلال سنوات الحرب الأهلية الإسبانية 456

(6-5): مسار رحلة الحج موسم 1940 460

(6-6): الأسعار المقترحة لرحلة الحج موسم 1940 461

(6-7): تذاكر رحلات الحج بالسفن الفرنسية والإنكليزية سنة 1940 461

(6-8): أفراد قوات المحلات المرافقون الحجاج سنة 1940 463

(6-9): أفراد قوات الريغولاريس المرافقون الحجاج سنة 1940 464

الأشكال

(4-1): مقارنة أسعار تذاكر السفر إلى الحج بين سنتي 1938 و1939 305
(4-2): مداخيل بيع التذاكر حسب المناطق 332
(4-3): مساهمة مناطق المحمية الإسبانية
في توفير مؤن الرحلة 339
(5-1): توزّع حجاج ناحية الغرب الحاصلين
على تذاكر سفر حسب القبائل 384
(5-2): توزيع التذاكر المخصصة لليبيين حسب درجة السفر 386
(5-3): توزّع الطواقم المرافقة لوفد حجاج موسم 1938 390
(5-4): توزّع حجاج الجنوب حسب القبائل 400
(5-5) توزّع حجاج جهة جبالة حسب القبائل 410
(5-6) توزّع حجاج الناحية الغربية حسب القبائل 411
(5-7): توزّع حجاج غمارة حسب القبائل 412
(5-8): توزّع حجاج الريف حسب القبائل 413
(5-9): توزّع حجاج جهة الشرق حسب القبائل 415
(6-1): عدد النساء المشاركات في حج سنة 1938 424
(6-2): توزّع النساء المؤديات الحج سنة 1939 حسب المناطق 425
(6-3): تطور عدد حجاج الوفد المغربي خلال مرحلة 1937-1939 453
(6-4): تطور أعداد الحجاج في الديار المقدسة بين 1937 و1939 457

الخرائط

(4-1): مسار ذهاب رحلة الحج موسم 1937 280
(4-2): مسار عودة الحجاج موسم 1937 284
(4-3): مسار ذهاب رحلة الحج موسم 1938 311

(4-4): مسار عودة رحلة الحج موسم 1938 313
(4-5): مسار ذهاب رحلة الحج موسم 1939 326
(4-6): مسار عودة رحلة الحج موسم 1939 329

الصور

(3-1): نموذج لمنشور دعائي جمهوري ضد عملية التجنيد 197
(3-2): نموذج للدعاية الجمهورية ضد التجنيد الفرانكوي
واستقطاب المغاربة لصفها 240
(4-1): السفينة دوميني قبالة ميناء سبتة 260
(4-2): بهو الدرجة الأولى لسفينة دوميني 263
(4-3): نموذج منشور دعائي لرحلة 1937 ويتضمن أسعار الرحلة 272
(4-4): منشور لصورة الباخرة ماركيس دي كومياس 298
(4-5): نموذج إعلان رحلة سنة 1938 301
(4-6): نموذج منشور دعائي لتنظيم الحج
من منطقة طنجة الدولية سنة 1938 307
(4-7): نموذج للأوراق المطبوعة للرسائل 353
(5-1): ظهير تعيين الرهوني رئيسًا لوفد الحجاج 364
(6-1): استقبال الوفد في قصر المعتمد بن عباد 440
(6-2): حضور الوفد المغربي حفل الاستقبال في إشبيلية 441
(6-3): نموذج لشهادة تلقيح الحجاج قبل التوجه إلى الحج 444
(6-4): القنصل الإسباني في جدة سي محمد قدور بن عمار 469

ملخص تنفيذي

يتناول هذا الكتاب مرحلة مفصلية من التاريخ المشترك بين المغرب وإسبانيا، وهي فترة الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939)، التي شهدت صعود نظام الجنرال فرانثيسكو فرانكو بهاموندي (Francisco Franco Bahamonde)؛ إذ يسلط الضوء على الوسائل الدعائية والدينية التي انتهجها نظام الجنرال فرانكو في المغرب خلال فترة الحرب الأهلية الإسبانية، مركزًا على الآليات المختلفة التي وظفتها الفرانكوية لبسط نفوذها، وكسب تعاطف المسلمين المغاربة، وضمان ولائهم العسكري والسياسي في سياق صراع داخلي دموي شهدته إسبانيا، كانت له امتدادات وتأثيرات عميقة داخل مناطق النفوذ الإسباني في المغرب. ومن تلك الآليات التي استغلها النظام الفرانكوي لتعزيز مشروعيته نجد السياسة الدينية، وذلك عبر تنظيم رحلات الحج، ودعم المؤسسات الدينية. ويحلل هذا العمل تحالف فرانكو مع الكنيسة الكاثوليكية، ويكشف كيف ساهم هذا التحالف في تشكيل استراتيجية "الدعاية الإسلامية" داخل منطقة النفوذ الإسباني في المغرب، والتي حاولت من خلالها الفرانكوية تقديم نفسها حاميًا للدين والإسلام ضد "الإلحاد الشيوعي الجمهوري" الذي حكم البلاد، وهي صورة دعائية استُغِلَّت بقوة لتجنيد آلاف المغاربة في صفوف الجيش الفرانكوي، وتلميع صورة فرانكو أمام الرأي العام العربي والإسلامي.

يمثل هذا الكتاب محاولة لإعادة قراءة مرحلة دقيقة من تاريخ المغرب خلال فترة الحماية الإسبانية، التي تزامنت مع صعود الجنرال فرانكو إلى واجهة الأحداث السياسية والعسكرية، وما ترتب عن ذلك من تحولات عميقة على مستوى الخطاب الاستعماري وآليات الهيمنة التي اعتمدتها الفرانكوية في المنطقة الخليفية. وإذا كان هذا السياق قد حظي بعناية المؤرخين من زوايا متعددة، فإن بعض القضايا المتصلة

بهذه المرحلة ظلت غائبة في البحث التاريخي، ومنها توظيف النظام الفرانكوي للشعائر الدينية الإسلامية، وفي مقدمها فريضة الحج، باعتبارها أداة دعائية ذات بعد استراتيجي، وهو ما يشكل لبّ هذا العمل، فالكتاب لا ينشغل بسرد وقائع سياسية أو عسكرية وحسب، بل يضع تحت المجهر العلاقة المعقدة بين الدين والسياسة في السياق الكولونيالي أيضًا، من خلال مقاربة تاريخية تحليلية تستند إلى وثائق دور الأرشيف، وإلى نصوص مصدرية معاصرة أنتجتها النخب التي عايشت التجربة. بهذا المعنى، يتجاوز الكتاب الطرح الوصفي لينخرط في تحليل عميق لآليات اشتغال الدعاية الفرانكوية، وحدود تأثيرها، وأثرها في إعادة تشكيل التمثلات السياسية والدينية داخل المغرب الخليفي.

تتمثل الإشكالية المركزية التي يطرحها هذا العمل في البحث عن الكيفية التي استطاع النظام الفرانكوي، وهو نظام عسكري محافظ متحالف مع الكنيسة الكاثوليكية، أن ينتج خطابًا دينيًّا موجَّهًا إلى المسلمين المغاربة، وأن يوظف فريضة الحج بما تحمله من قدسية ورمزية عميقة في الوجدان الإسلامي، باعتبارها آلية سياسية لأغراض دعائية مرتبطة بظرفية الحرب الأهلية الإسبانية، لتأمين الحصول على الشرعية واستقطاب الأهالي. ويتفرع عن هذه الإشكالية عدد من الأسئلة الجزئية، من قبيل: ما الأدوات التي استعملتها الفرانكوية لبناء صورة فرانكو باعتباره "صديقًا للإسلام"؟ وما طبيعة التفاعل الذي لقيته هذه السياسة من مختلف الفاعلين المحليين، وعلى رأسهم الزوايا، النخب التقليدية، الحركة الوطنية... وغيرها؟ إلى أي مدى ساهم تنظيم رحلات الحج الرسمية في ترسيخ نفوذ الفرانكوية داخليًّا، وتلميع صورة قائدها في الخارج، لا سيما في العالمين العربي والإسلامي؟ وهل كان لهذا المشروع بعد استراتيجي مستدام، أم مجرد سياسة ظرفية مرتبطة بضرورات الحرب الأهلية في إسبانيا؟ وما أوجه المقارنة بينها وبين أنماط أخرى من الدعاية الاستعمارية، خصوصًا الفرنسية؟

انطلاقًا من هذه التساؤلات، يحاول هذا العمل إبراز خصوصية السياسة الدينية الفرانكوية التي لم تكن قائمة على قناعة عقائدية أو على انفتاح ثقافي صادق، بل كأداة براغماتية محض، استعملت لكسب الشرعية، وتُخُلِّي عنها فور تحقيق أهدافها بالانتصار على النظام الجمهوري.

يبرر اختيار هذا الموضوع باعتبارات علمية ومنهجية عدة. أولها، ندرة المعالجة الأكاديمية لهذه الظاهرة، حيث لم تحظَ رحلات الحج الفرانكوي، إلى حدود الساعة، بدراسة مستقلة ومتكاملة، بل لم ترد إلا عرضًا ضمن سياقات بحثية أخرى، كما في بعض الدراسات المهتمة بالحرب الأهلية الإسبانية أو بالتجنيد العسكري للمغاربة، أو في المقالات الصحافية المعاصرة. ثانيًا، تتيح هذه الدراسة الغوص في مرحلة دقيقة من تاريخ الاستعمار الإسباني للمغرب، وهي المرحلة التي تزامنت مع إعادة تشكيل النظام السياسي في إسبانيا عقب الانقلاب العسكري في عام 1936، وسعي نظام فرانكو إلى بناء شرعيته داخل إسبانيا انطلاقًا من مستعمراته، عبر خطاب مزدوج يجمع بين القومية الكاثوليكية واحترام الدين الإسلامي. ثالثًا، يقدم موضوع "الحج الفرانكوي" فرصة لمساءلة علاقة الدين بالدعاية السياسية، وكيفية تطويع الممارسة الدينية في خدمة مشروع سلطوي استعماري.

تنبع أهمية هذا العمل من أصالة موضوعه وندرة المعالجات السابقة له. فباستثناء بعض الدراسات الجزئية، مثل عمل سعيد الغازي اليملاحي حول السياسة الدينية الإسبانية في شمال المغرب خلال مرحلة الحماية الإسبانية في مجملها، أو مقالة الباحث الأميركي إريك كالدِروود (Eric Calderwood) عن رحلة حج 1937، أو أعمال بوبكر بوهادي ومصطفى المرون التي تناولت موضوع تجنيد المغاربة في الحرب الأهلية، فإن الحج الفرانكوي لم يحظَ بدراسة مستقلة وشاملة. وحتى الأعمال الإسبانية، مثل مؤلفات ماريا روسا دي مادرياغا (Maria Rosa De Madariaga)، وجوزيب لويس ماتيو ذييستي (Josep Lluís Mateo Dieste)، وإن كانت تطرقت في تحليلها للعلاقة بين الدين والسياسة، فإنها لم تُفرد للحج سوى إشارات عابرة. من هنا، يشكل هذا الكتاب إضافة نوعية لسد فراغ بحثي واضح، إذ يقدم أول معالجة أكاديمية متكاملة لهذا الموضوع، المتمثل في: توظيف الحج في السياسة الاستعمارية الإسبانية في المغرب خلال الفترة الممتدة ما بين 1936–1939، بالاعتماد على مادة مصدرية غنية ومتنوعة، وعلى منهجية دقيقة تقوم مقاربة تاريخية تحليلية، قوامها استقراء الوثائق، ضمن قراءة نقدية تضع الوثيقة في سياقها السياسي وسياقها الأيديولوجي، مع توظيف المنهج المقارن من خلال دراسة التجربة الفرانكوية في تنظيم الحج، ومقارنتها بنظيرتها الفرنسية.

لقد شكلت المادة المصدرية الركيزة الأساسية لهذه الدراسة، وتميزت بتنوعها وغناها، إذ استُعين بدور الأرشيف الوطني والأرشيف الدولي، إضافة إلى أرشيفات خاصة. فعلى المستوى المغربي، مكنتنا وثائق أرشيف مديرية الوثائق الملكية في الرباط، من توثيق مشاركة شخصيات مغربية رسمية في الرحلات الحجية. أما على المستوى الإسباني، فرجعنا إلى الأرشيف العام للإدارة بقلعة هيناريس (Alcalá de Archivo General de la Administración (Henares))، الذي وفر مراسلات تنظيمية وتقارير لوجستية ومالية وطبية تتعلق بتنظيم رحلات الحج، ثم أرشيف المؤسسة الوطنية فرانثيسكو فرانكو في مدريد (Archivo Fundación Nacional Francisco Franco)، الذي كشف عن التوجيهات السياسية الخاصة بالدعاية الدينية. أما الأرشيف العسكري العام لأبيلا (Archivo General Militar De Avila)، فقد قدم معطيات مهمة عن البعد الدعائي المصاحب للتجنيد في صفوف المغاربة، وأتاح لنا الأرشيف العام للبحرية ألبارو دي بثان (Archivo General de la Marina "Alvaro de Bazan") تتبع جهد تجهيز السفن المخصصة من الإدارة الفرانكوية لنقل الحجاج. وقدم أرشيف الجنرال خوسيه إنريكي باريلا في مدينة قادس (Archivo Varela - Cádiz) وثائق حول السياسة الدينية.

وقد وظفت الدراسة الأرشيف الوطني الفرنسي (Archives Nationales de France) في باريس، والأرشيف الهولندي في لاهاي (Nationaal Archief Nederland - Den Haag)، والأرشيف البريطاني (The National Archives) والمكتبة الوطنية البريطانية (The British Library)، والتي أمدت بمعطيات عن مواقف القوى الدولية، وعن الوضع الصحي في مواسم الحج. هذا وانفتح البحث على أرشيفات خاصة، مثل أرشيف عائلة الحاج محمد العوفي، الذي شارك في رحلة حج 1937، حيث حصل الباحث على وثائق أصلية قدمت إضافة مهمة للعمل.

ولم تقتصر المادة المصدرية على الوثائق الأرشيفية، بل شملت نصوصًا رحلية ذات قيمة كبيرة، مثل **الرحلة المكية** لأحمد الرهوني، الذي ترأس وفد حج 1937، و**الرحلة المعينية** لماء العينين بن العتيق، الذي شارك في رحلة 1939. وقد شكلت هذه النصوص شهادات مباشرة عن الرحلات، عكست مشاهدات المشاركين وانطباعاتهم. أما على مستوى الصحافة، فقد مثلت الجرائد المغربية الصادرة في المنطقة الخليفية مثل **الريف** و**الوحدة المغربية**، إلى جانب الصحف المشرقية مثل

الجامعة الإسلامية الفلسطينية، و**الجزيرة العربية** السعودية، ثم الصحف الإسبانية، ونميز فيها بين نوعين: صحف إسبانية صادرة من المغرب، وأخرى كانت تصدر من الأراضي الإسبانية، مصدرًا توثيقيًّا رئيسيًّا في تتبع تفاصيل الرحلات، ومساراتها، وأسعار التذاكر، واستقبال الوفود، والدعاية الإعلامية المصاحبة لها.

تكشف الدراسة في ضوء هذه المادة الغنية والمتنوعة، استهداف السياسة الدينية الفرانكوية الفئات الاجتماعية ذات النفوذ داخل المجتمع. فقد اعتمدت الفرانكوية على سياسة حذرة تمثلت في التسامح الظاهري مع الوطنيين، والسماح لهم بهامش من الحرية الحزبية والصحافية، وهذا الانفراج السياسي لم تعرفه إسبانيا نفسها خلال الفترة المدروسة. وقد أظهر تحليل المادة المصدرية المعتمدة أن هذا الانفتاح لم يكن سوى سياسة براغماتية مؤقتة، سرعان ما تُخُلِّي عنها، إذ كانت الغاية منها تحييد المعارضة الوطنية لا غير. وفي موازاة ذلك، سعت الفرانكوية إلى استمالة الزوايا عبر دعم زعمائها، لما لهم من سلطة روحية ونفوذ اجتماعي، وتوظيفهم لبث الدعاية لمصلحة الفرانكوية في أوساط القبائل/الأوساط القروية، كما عمدت الإدارة الفرانكوية إلى تقليص نفوذ الحركة الوطنية بطرائق مختلفة.

وفي هذا الإطار، شكل تنظيم رحلات الحج أداة مركزية في العمل الدعائي للفرانكوية؛ فأقدمت على تنظيم ثلاث رحلات حج في أعوام 1937 و1938 و1939، أُعِدَ لها بعناية فائقة، واختِيرَت الوفود الرسمية من شخصيات ذات وزن ديني وقضائي وقبلي، ووفرت لها تذاكر مجانية وخدمات متميزة، في حين تحمّل العامة من الأهالي تكاليف رحلاتهم، ما كشف عن تفاوت اجتماعي صارخ. كما سخرت السلطات سفنًا حديثة مجهزة بوسائل الترفيه، مع تقديم تغذية جيدة، ورعاية صحية، ولقاحات، حرصًا على رسم صورة إيجابية تظهر احترام فرانكو للمسلمين. وبُرمِجَت الرحلات للمرور عبر مدن أوروبية وعربية، الأمر الذي أتاح فرصًا دعائية إضافية. وبفضل هذه الترتيبات، تحولت الرحلات إلى منصات لتلميع صورة فرانكو في العالم الإسلامي، إذ حظيت بتغطية إعلامية واسعة في الصحافة المغربية والعربية والأوروبية.

أما على المستوى الخارجي، فقد استثمرت الفرانكوية في هذه الرحلات لتأكيد شرعيتها باعتبارها قوة تحترم الدين. فسعت الفرانكوية إلى الحصول على تمثيل

قنصلي مباشر في جدة، لكن السلطات السعودية رفضت ذلك، فلجأت إلى التنسيق مع الدبلوماسية الإيطالية، ونُقِلَ الحجاج الليبيون على السفن نفسها التي نقلت المغاربة، وهو ما عكس البعد الاستراتيجي للحج باعتباره أداة للتحالف الفرانكوي-الموسوليني في قلب المجال الإسلامي.

وتكشف الدراسة، من خلال تحليل دقيق للمادة الوثائقية، أن السياسة الفرانكوية لم تكن مدفوعة باعتبارات دينية حقيقية، وإنما نابعة من حاجة ظرفية لاستمالة السكان خلال مرحلة الحرب الأهلية، لذا توقفت عن تنظيم الحج بعد 1939، بمجرد إحكام قبضتها على السلطة. رغم تبرير الإدارة الإسبانية هذا التوقيف باندلاع الحرب العالمية الثانية، بينما تكشف الوثائق أن السبب الحقيقي هو انتفاء الحاجة الدعائية إليها بعد ترسيخ أركان النظام الفرانكوي، وعدم حاجته إلى تجنيد المغاربة في صفّه، وكسب الشرعية له.

وخلصت الدراسة إلى جملة من النتائج المهمة، منها أن الحج تحول خلال مرحلة الحرب الأهلية الإسبانية من شعيرة دينية إلى أداة دعائية استعمارية بامتياز، استغلت لتكريس الولاء للنظام الفرانكوي، داخليًّا وخارجيًّا، وأن الخطاب الديني الفرانكوي لم يكن تعبيرًا عن احترام للإسلام، بل عن براغماتية سياسية سعت إلى استمالة الفئات الهشة واستغلال الرموز الدينية. وظهر من خلال هذا البحث أن نجاح الفرانكوية في استقطاب جزء من السكان كان نسبيًّا ومحدودًا، كما أن السياسة الفرانكوية اعتمدت على التلاعب الرمزي، من خلال بناء صورة فرانكو باعتباره "حامي الإسلام"، وهي صورة رُوِّج لها عبر الصحافة والمناشير، لكنها لم تنجح في إقناع الفئات كلها.

وقد أبرزت الدراسة أن تجربة الحج الفرانكوي خلال مرحلة الحرب الأهلية الإسبانية تمثل نموذجًا فريدًا لكيفية استغلال الدين في المشاريع الاستعمارية، وتفتح المجال لمقارنات مفيدة مع السياسة الفرنسية في تدبير الحج. وأن التجربة الفرانكوية في تنظيم الحج ارتبطت بمرحلة الأزمات، المتمثلة في الحرب الأهلية الإسبانية، ثم بعد ذلك إبان العزلة الدولية للنظام الفرانكوي. وأظهرت الدراسة أن الاستفادة من هذا الرحلات لم يقتصر على الذكور فقط، بل شمل النساء اللواتي سجلن حضورًا لافتًا فيها أيضًا، إما ضمن الطواقم الصحية والخدماتية المرافقة

للحجاج، أو باعتبارهنّ حاجّات توجهن لأداء المناسك. وأخيرًا، خلصت الدراسة أيضًا إلى ما يمكن تسميته "الحج النخبوي"، حيث استقطبت الرحلات الفرانكوية أساسًا النخب السياسية والدينية في المنطقة الخليفية.

بذلك، يقدم الكتاب مساهمة علمية أصيلة في حقل الدراسات التاريخية، ويعيد النظر في دور الدين في المشروع الاستعماري الإسباني في المغرب، وفهم علاقة الدين بالاستعمار، من خلال دراسة حالة دقيقة وُظِّفَت فيها فريضة الحج وسيلة دعاية سياسية واستقطاب أيديولوجي. فهو لا يكتفي بتوثيق وقائع مهملة، بل يقدم تحليلًا معمّقًا للخطاب الدعائي وآلياته ونتائجه، بالاعتماد على مادة أرشيفية غنية ونصوص معاصرة. ويؤكد أن الحج، في هذا السياق، كان أكثر من مجرد رحلة روحية، بل كان أداة سياسية ودبلوماسية وإعلامية، توظفها قوة استعمارية لتثبيت نفوذها. هكذا، يساهم هذا العمل في إثراء النقاش الأكاديمي في استغلال الدين من القوى الإمبريالية، ويشكل مرجعًا لا غنًى عنه لفهم تداخل الدين والسياسة في تاريخ المغرب المعاصر.

وتظهر أهمية هذا العمل من خلال انفتاحه على مقاربات جديدة لتحليل الحج بوصفه ظاهرة سياسية بامتياز، لا تقتصر على بعدها الروحي، بل تمتد لتكون وسيلة لتأطير المجتمعات المستعمَرة، وبناء الولاءات، وصناعة الرموز في خدمة الهيمنة الكولونيالية. وقد فتح آفاقًا جديدة في فهم العلاقة بين الاستعمار والدين، من خلال التركيز على التفاعل الثلاثي بين الفاعل الاستعماري (الجنرال فرانكو)، والفاعل المحلي (النخب الدينية والسياسية المغربية)، وسياق الصراع الدولي (الحرب الأهلية). ويسلط الكتاب الضوء على مرحلة لا تزال الكثير من أحداثها لم تدرس بشكل كاف في التاريخ المغربي، وهي مرحلة التفاعل بين السياسة الإسبانية الفرانكوية والمجتمع المغربي من منظور ديني ومنظور دعائي، من خلال تقديم وثائق نادرة ومعطيات أرشيفية دقيقة حول سياسة الحج باعتبارها أداة استعمارية. وبذلك، ومما لا شك فيه، يقدم هذا العمل مرجعًا غنيًّا للباحثين في مجالات التاريخ، والعلوم السياسية، والدراسات الدينية.